رمزية "الوادي الكبير" في الشعر الأندلسي والإسباني دراسة مقارنة في نماذج مختارة¹

د. صالح عيطة الزهراني

أستاذ مشارك بجامعة الملك سعود

كلية الآداب - قسم اللغة العربية

مستخلص. تعالج الدراسة الماثلة ظاهرة جليلة تحظى بتمثيلات لافتة في الشعر الإسباني قديماً وحديثاً، تكمن في انتحال نهر "الوادي الكبير" الشهير في الجنوب الإسباني، رمزاً تجرب به القصيدة تجسيد التجاذب الدائم بين الإنسان والظواهر الوجودية من حوله. وترمي القراءة إلى تحليل هذه العلاقة وتفكيكها في علامات كبرى تستولي عليها ثنائية الموت والحياة وما يندرج فيها ويتفرع عنها، بوصفها الأصل الموضوعي الذي يمثل نهر الوادي الكبير معادله الأدق ونموذجه الأصدق لدى الشاعر الإسباني. وقد انتخبت الدراسة متوناً من الشعر الإسباني في القديم والحديث لأهم الشعراء الذين تنزل نهر الوادي الكبير في شعرهم منزلة الروح من الجسد، فارتكنوا إليه في تشكيل القصيدة موضوعياً وفنياً. وفي مستهل الدراسة إشارة خاطفة للتجربة الأندلسية في هذا الموضوع بوصفها قسيماً مفارقاً للتجربة الإسبانية يظهر فيه انهماك الشاعر الأندلسي في المجردات على الحكم الأغلب، بينما انشغل صنوه الإسباني بما هو أعمق من ذلك، تحدوه القيمة الوجودية العليا لنهر الوادي الكبير. كلمات مفتاحية: الشعر الإسباني، الرمزية، الوادي الكبير.

توطئة:

الإنسان والماء

ثنائية "الماء-الوجود" سرعان ما استحالت ضرباً من التماهي الغائر في فكر الإنسان ووجدانه. ومن البدهي أن يؤلف الماء بشتى تمثيلاته المادية ظاهرة من أهم الظواهر التي حفت بالإنسان منذ أقدم العصور، إن لم تكن أهمها؛ والدليل شدة انفعاله بها حتى غدت جزءاً

لا شك أن صلة الكائن البشري بعنصر الماء قديمة قدم الإنسان نفسه، ومن الثابت أن تلك العلاقة لم تنحصر في محيط الشعور الساذج بالنفعية؛ إذ إن

¹ أشكر عمادة البحث العلمي ممثلاً بمركز البحوث بكلية الآداب بجامعة الملك سعود على دعمه السخي لهذه الدراسة.

الأخرى ما يوطد هذه الفكرة كما هو الحال مع هيكل سليمان عليه السلام في الديانة اليهودية، وما انطوى عليه "المطهر" فيه من دلالة النقاء البدني المفضي إلى الطهارة الروحية.

ولا نغفل كذلك عن أن الماء، زيادة على فعل التطهير فيه، قد ترسّخ أيضًا في الأديان بوصفه عنصرًا أساسًا للنعيم الأبدي في الجنة مقابل نعيم الدنيا المشاغل له، وحتى سوائل الدنيا تستحيل في الجنة أنهارًا من عسل وخمرة ولبن.

التجربة الأندلسية

شغل الماء منذ القدم حيزًا في الشعر العربي، لا بوصفه غرضًا مستقلًا بادئ الأمر، بل مكونًا من مكونات القصيدة، ومادة ملهمة للخيال الشعري. وتعد ظاهرة "الاستسقاء" من أهم تمثيلات الماء في الشعر العربي القديم؛ فقد نعمت بحضور لافت داخل القصيدة بوصفها علامة على البقاء في بيئة قاسية يتمثل فيها الموت تمثل الحياة، ما جعلهم يستسقون للميت والحي على حد سواء، وكأن دور الماء يتجاوز استدامة الحياة إلى التطلع لاستخلاصها من الموت نفسه ولو كان معنويًا على الأقل.

ورغم أن انفعال الشاعر بالطبيعة من حوله فطري بغض النظر عن ثقافته ولغته، تعد التجربة الأندلسية فرادة قياسًا بمحيطها اللاتيني آنذاك. فمعلوم أن

لا يتجزأ من عاطفته وخياله، فاستحثت فيه مشاعر الحب والخوف والأمل وغير ذلك.

وثمره لهذا الانجذاب الطاعي الذي لازم الإنسان منذ أعتق العصور؛ تحول الماء إلى مادة رئيسة للأديان والأساطير المختلفة. وهناك أفكار تلبست بالماء منذ القدم وتعلقت به حتى استقرت رموزًا وإشارات؛ كعلاقته بالخصوبة والتكاثر من جهة كونه الوسيلة الأولى للتخلق البشري ومن ثم البقاء والاستمرار¹، وهذا ما صادق عليه النص الديني حين قرنه بالحياة على الإطلاق: "وجعلنا من الماء كلّ شيء حي"².

وتظل فكرة التطهير الملازمة للماء في طبيعة ما يمكن أن يشار إليه في هذا الصدد، وهي المسؤولة في الغالب عن قدسنته وجعله قضية دينية بالدرجة الأولى³. وفي التراث الديني على اختلاف مصادره ما يجسد هذا الاقتران ويرسخه؛ ففي القرآن الكريم مثلاً، هنالك محورية طاغية للماء في فعل التطهير من الدنس في هيئته المعنوية وليس الحسية فقط، حتى في سياق الحديث عن الهلاك والدمار؛ كما هو الحال في قصة نوح عليه السلام حين كان الطوفان سببًا مباشرًا في طهارة للأرض من بغي العتاة والمفسدين، ومثله في قصة غرق فرعون في البحر وخلص موسى عليه السلام وقومه، وما تضمنته من رمزية التطهير الذي أراح الأرض من الظلم والجبروت. وفي التقاليد الدينية

والأحلام، ترجمة: علي نجيب إبراهيم، بيروت: المنظمة العربية للنشر، 2007، ص ص 142، 175 وما بعدها.

² الأنبياء: 30.

³ للمزيد عن موضوع التطهير، انظر باشلار، غاستون، الماء والأحلام، الفصل السادس من ص 197.

¹ يشير باشلار في كتاب الماء والأحلام إلى ثنائية الماء-الحليب باعتبارهما شيئًا واحدًا أساسًا لضرورة الوجود والحياة منذ النشأة الأولى للكائن البشري، مع التأكيد في موضع آخر على فكرة أن الماء هو السائل الأكثر كماليًا، ومنه ستمتد السوائل سيولتها. انظر باشلار، غاستون، الماء

ووداع وصخب وهدوء. لقد كان ملهمًا بالقدر الذي يمكن تشبيهه بآلهة اليونان وربات الشعر عند العرب. وفي سياق مشابه، يقول ابن ظافر الأزدي: "وركب الأستاذ أبو محمد بن صارة مع أصحاب له في نهر إشبيلية، في عشية سال أصيلها على لجين الماء عقبانًا، وطارت زوارقها في سماء الماء عقبانًا، وأبدى نسيمها من الأمواج والدارات سرًّا وأعكانا، في زورق يجول جولان الطرف، ويسود اسوداد الطرف، فقال بديهاً:

تأمل خالنا والجو طلق محياء وقد طفّل المساء
وقد جالت بنا عذراء حُبلى تُجاذبُ مرطها ريحَ رخاء
بنهر كالمسجّل كوثري تُعبسُ وجهها فيه السماء

واتفق أن وقف أبو إسحاق ابن خفاجة على القطعة، فاستظرفها واستطابها، فقال يعارضها على وزنها وروبيها وطريقها، فأنشد:

ألا يا حبذا ضحك الحُميا بحانتها وقد غبس المساء
وأدهم من جياذ الماء نهج تنازع خبله ريحَ رخاء
إذا بدت الكواكب فيه غرقى رأيت الأرض تحسدها السماء³

وفي شعر الطبيعة الأندلسي ما يمكنه أن يحد من وطأة وصفه-والشعر العربي عامة- بالتعلق بالمجرد⁴،

الأندلسيين تعلقوا ببيئتهم على نحو معمق تجسد في شعرهم فامتازوا بكثافة التصوير والانهماك في تفاصيل المشهد بشكل يسترعي الانتباه ويستدعي التأمل. إن المطالع لشعر الطبيعة الأندلسي يرصد تقدمًا ملحوظًا في وعي الشاعر بها، وبعنصر الماء الذي يعتبر مكونًا أعلى فيها¹، وهو أمر تقصر عنه-في اعتقادي-تجربة جيرانهم المسيحيين آنذاك؛ إذ تأخر وعيهم بها على نحو لافت، إلى عهد فراي لويس دي ليون (1528-1591 م) ولويس دي غونغورا (1561-1627م) مثلاً، وهي مساهمات واعية في هذا الصدد أعقبت سقوط الأندلس ونهاية الوجود العربي فيها.

وعطفًا على تلك الأهمية، فقد ترك أثرًا بليغًا عند الإسبان والعرب الأندلسيين قبلهم، فهذا مثلاً ابن سفر المريني يقول عن الوادي الكبير²:

شقّ النسيم عليه جيب قميصه فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت وُرق الحمام بدوجه هزءاً فطم من الحياء إزاره

لقد شخّص النهر فصوره على هيئة بشر بإحساس مفعم وإرادة كاملة، وهو أمر ليس بمستغرب إذا ما أدركنا أن الوادي الكبير كان مسرحًا مفتوحًا عند الأندلسيين تنتظم في جنباته كل مشاهد الحياة من لقاء

¹ للمزيد حول الأندلس وعلاقته بالماء، خاصة في الشعر، انظر مثلاً:

بنحمادة، سعيد، الماء والانسان في الأندلس - خلال القرنين 7 و 8 هـ / 13 و 14 م - إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 2007؛ الشكعة، مصطفى، الشعر الأندلسي موضوعاته وفنونه، بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 1979؛ الجديعي، محمد، المائيات في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، ماجستير، جامعة أم القرى، 2015؛ سلطان، هبة، أثر الماء في القصيدة الأندلسية، الجامعة الأردنية، ماجستير، 2009.

² ابن الأبار، المقتضب من كتاب تحفة القادم، تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة-بيروت: دار الكتاب المصري-دار الكتاب اللبناني، ط3، 1989، ص 154.

³ ابن ظافر الأزدي، علي، بدائع البدائنه، ضبطه وصححه: مصطفى عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، 2007، ص ص 255-256.

⁴ وصف إحسان عباس الشعر الأندلسي وخاصة شعر الطبيعة زمن سيادة قرطبة، فقال "قد تنكب طريق التأمل النفسي أو العمق الفكري وتعلق بالمحسوسات يدور حولها أو يتحدث عنها أو يصفها، حتى مشكلة الموت لم تخلق فيه تأملًا من نوع عميق..."؛ عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، عمان: دار الشروق، 2008، ص 117.

بالوجود دون الوصول لأبعد من مجرد الوقفة العابرة؛ لانغماس الشاعر في عنصر التشخيص وافتتانه بتخليق الصور. تأمل قول الشاعرة حمدونة بنت زياد المؤدب⁴:

وقانا لفحة الرُمضاء وإد سقاء مُضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحننا علىنا حنو المُرُضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زللاً يرُدُّ الروح للقلب السقيم
يصدُّ الشمس أنى واجهتنا فيحبُّها ويأذن للنسيم
يروع حصاه خالية العذاري فتلمس جانب العقد النظيم

فقران الماء بالأم المرضع وليد تأمل وتُبدِ وانفعال عاطفي عميق، لكنه عجز عن خلق نظرة وجودية فلسفية خاصة، وبقي في حدود التأثر الغائر. ولعل الشاعر الأندلسي لم يتحلَّ بالصبر الفني الذي يدفعه للحفر في محيط الفكرة الواحدة؛ إذ سرعان ما يعود للأسطح فور ملامسة الأعماق.

ونظراً لأهمية الماء وموقعه في الضمير الإنساني جاء اختياري له موضوعاً لهذه الدراسة، ثم خصصته بنهر الوادي الكبير المعروف في إسبانيا باسمه العربي حتى اليوم. والناظر في كم النصوص المتوفرة على هذا النهر محوراً لها، يلمح عناية بالغة به في الشعر الإسباني في القديم والحديث، ولو صح أن عناية الشاعر الإسباني القديم بالمائيات جاءت من واقع تأثر بنظيره الأندلسي المهووس بالطبيعة عمومًا؛ فإن الشاعر الإسباني الحديث جعل من نهر الوادي الكبير

على أن الرؤية الحديثة لا تعد تلك النصوص في مستوى الوعي الفلسفي النافذ إلى بواطن الأمور؛ فالتشخيص الدقيق الذي يخلق الماء في هيئة كائن بشري، لا يفي بغرض هذه الدراسة التي تتغيا حالة التماهي الوجودية للإنسان مع الماء، لكنه على كل حال وسيلة الشاعر لتأمل ظاهرة الماء والتعبير عن انفعاله الوجداني بها. هذا ابن خفاجة يعبر باعتناء دقيق عن الماء في معرض وصفه لبعض الثمرات¹:

ومحمولة فوق المناكب عزة لها نسب في روضة الحزن معرق
رأيت بمرآها المني كيف تلتقي وشمل رياح الطيب وهي تفرق
يضاكها نعر من الشمس ويلحظها طرف من الماء أرزق
واضح تروق فطرفي حيث يفرق يحرق
وتجلى بها للماء والنار صورة

ففي البيت الأخير استدعاء لفكرة فلسفية تحفل بجمع النقيضين: الماء والنار، في مشهد واحد لا يلغي أحدهما فيه الآخر، وهو في هذا يعيدنا للشاعر العباسي أبي نواس حينما جمع في الثلج صفتي البرودة والحرارة²:

سختت من شدة البرودة حتى صرت عندي كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتي كذلك الثلج بارد حار

وقد عقب ابن رشيق على هذين البيتين بقوله: "فهذا مذهب كلامي فلسفي"³.

إن في الشعر الأندلسي، في موضوع الطبيعة ومنها المائيات، ما يشعرك أحياناً بنوع من التلبس الطفيف

³ ابن رشيق، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الجيل، ط5، 1981، ج 2 ص 80.

⁴ المقري، نفح الطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1988 ج 4 ص 288.

¹ ابن خفاجة، ديوان، تحقيق: عبد الله سنده، بيروت: دار المعرفة، 2006، ص 208.

² أبو نواس، الحسن بن هانئ، ديوان أبي نواس برواية الصولي، تحقيق: بهجت الحديثي، أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، 2010، ص 421.

مغلّقا في نظام بعينه، وإنما توجه اهتمامها إلى فضاءات عدة تشمل التحليل النفسي والنظم الاقتصادية والاجتماعية والأيدولوجيا ونظرية الخطاب...². وعلى الرغم من عظم الانتفاع الذي يبشر به هذا الانفتاح في تحليل النصوص؛ لن تتسع محاولتنا لأكثر من اليسير الذي نقدر كفايته لبلوغ غايات الدراسة.

شريحة الدراسة

لا يخفي ما يلحق عملية الاختيار من صعوبات وإشكاليات، لكنني في نهاية المطاف انتخبت جملة من النصوص قدرت فيها الكفاية للوفاء بتطلعات الدراسات، وكنت ميالاً إلى تلك النصوص التي تشعر بوجود تقاطعات مشتركة وتجربة يمكن تعميمها على كل نصٍ حديثٍ موضوعه الماء. لذلك وقع الاختيار على نصوص قديمة تعود لشعراء إسبان بارزين من القرن الخامس عشر والسادس عشر، وحديثة لنخبة من شعراء القرن العشرين تعكس في جملتها اتصال التجربة الشعرية الإسبانية في هذا الموضوع تحديداً. والجدير بالذكر هنا أننا لن نعدم من الباحثين -إسبان على حد علمي- من حاول الوقوف على علاقة الماء بالوجود الإنساني من خلال نهر الوادي الكبير. لقد أشارت بعض الدراسات الإسبانية إلى هذه العلاقة عند

الذي يخترق أجزاء واسعة من جنوب إسبانيا وصولاً للمحيط الأطلنطي؛ رمزاً لدوائر عميقة تفلسف الكون والوجود من حوله.

بين يدي الدراسة

تجتهد الدراسة الحاضرة في الإجابة عن جملة من التساؤلات يمكن إجمالها في التالي: هل بلغ الشاعر الإسباني حد التماهي مع الطبيعة من خلال نموذج نهر الوادي الكبير، أم بقي في إطار التصوير التسجيلي الفوتوغرافي تارة، والمناوشة المحدودة تارة أخرى كما غلب على نظيره الأندلسي؟ وما الظواهر الكبرى المعبرة عن هذا التماهي في حال حدوثه فعلاً؟ ولأن الوقوف على نظام العلامات مهم في مثل هذا اللون من الدراسات، ستكون إجراءات المنهج السيميائي¹ أداة معينة للدراسة لتجلية التجربة الشعرية والوقوف على أبرز معالمها.

ومن المعلوم أن تركيز هذا الحقل على دور العلامات في عملية التواصل يجعله علماً شاملاً وإن بدا الاهتمام به في جانب اللغة كبيراً، فاللغة نظام من العلاقات أيضاً مقترنة بأفكار كغيرها من الدوال غير اللغوية مثل إشارة المرور أو تفاصيل الوشم وغير ذلك.

إن النظام اللغوي الكامن في موضوع بعينه من الشعر، وإن كان يعيننا كثيراً هنا، لن يكون كافياً للاضطلاع بالدراسة دون تعزيزه بالأنظمة العلاماتية الأخرى وبذلك يتحقق ما دعا إليه شولز من أن السيميائ ليس بحثاً

سيزا قاسم، مجلة فصول، المجلد 1، العدد 3، 1981، ص 55-65؛ شولز، روبرت، السيميائ والتأويل، ترجمة: سعيد الغانمي، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1994.
² شولز، روبرت، السيميائ والتأويل، ص 15.

¹ حول المنهج السيميائي انظر أعمال سعيد بنكراد مثل: السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، سوريا: دار الحوار، ط3، 2012؛ السيميائيات والتأويل مدخل لسيميائيات ش.س. بورس، بيروت-الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2005. وانظر بنفنيست، إميل، السيميولوجيا واللغة، ترجمة:

مقاطعة جيان، حتى سانلوكار (Sanlúcar) أو شلوقة في مقاطعة قادس. وتعود أهميته على الأرض كونه ينبسط على مساحة معتبرة، ويقوم على تغذية أجزاء واسعة من الجنوب الأندلسي بروافده الكثيرة كنهر شنيل (Genil)، المعروف في غرناطة وغيرها.

وكما استنتج سابقًا، فإن الشاعر الأندلسي تقاسم مع صنوه الإسباني نزعة التفاعل مع المياه الجارية بوصفها مكتسبات في المستويين المعيشي والنفسي. والسؤال الذي يتجدد هنا: إذا تقرر أن الشاعر الأندلسي لم يتجاوز ملامسة الفكرة فيما يخص قيمة الماء دون أن يذلف إلى بواطن العلاقة معه من جهة الجانب الوجودي الرمزي؛ فهل كان الشاعر الإسباني القديم المجاليل له أو الواقع في محيطه الزمني الكبير مثله، أم عبر على نحو مختلف حقيق بالوقوف والتأمل؟ هذا لويس ذي غونغورا (1561-1627 م)³، من شعراء القرنين السادس عشر والسابع عشر يقول عن نهر الوادي الكبير⁴:

شعراء إسبان محدثين غالبًا¹، لكنها لا تعدو أن تكون مناقشات عابرة للفكرة في نصوص الوادي الكبير ولم تشكل همًا بحثيًا منذ الأساس. وعلى كل حال تظل فكرة الماء والإنسان بدهية لا تمثل جدة في عنوانها العريض؛ إذ إنها ثنائية -كما سبق أن أشرنا في موضع سابق- متلازمة منذ القدم، ولعل الدراسة الحاضرة تكون أكثر رسوخًا وجدية في معالجة الظاهرة عبر نصوص لشعراء الوادي الكبير؛ كونها توفرت على العلامات العميقة لهذه العلاقة وناقشتها-في زعمنا- على نحو متأن وباستقراء عام.

رمزية الوادي الكبير في الشعر الإسباني القديم:

يقع نهر الوادي الكبير أو Guadalquivir² في إسبانيا، وكان يعرف قبل الوجود العربي بنهر بيتيس (Betis) في الحقبة السابقة للعهد الروماني. يخترق مواضع أندلسية عدة كجيان وقرطبة وإشبيلية منتهيًا إلى المحيط الأطلسي، ويمتد بطول 657 كم أو أكثر من سلسلة جبال كاثرولا (Sierra de Cazorla) من

¹ من هذه الدراسات يمكن أن نذكر:

Pineda Novo, Daniel. "Antonio Machado, exegeta del Guadalquivir". *Boletín del Instituto de Estudios Giennenses*, N. 66, 1970, pp. 41-68; Jiménez Martos, Luis. *Abrazo al Guadalquivir. Colección Córdoba*. Diario Córdoba y Cajasur 1996;

Solano Márquez, Francisco. *Un río de versos. Rincones de Córdoba con encanto*. Diario Córdoba 2003.

² عن نهر الوادي الكبير وتاريخه الضارب في عمق أوروبا؛ انظر

Eslava Galán, Juan, *Viaje por el Guadalquivir y su Historia*, Madrid: La Esfera de los Libros, 2016. (إسلابا)
غالان، خوان، رحلة في الوادي الكبير وتاريخه)

³ لويس ذي غونغورا إي أرغوتي (Luis de Góngora y Argote)، شاعر ومسرحي إسباني من مواليد قرطبة في النصف الثاني من القرن السادس عشر، شكل تيارًا أدبيًا خاصًا عرف بعده بالغونغورية، وتوفي في قرطبة في النصف الأول من القرن السابع عشر.

Rey de los otros, río caudaloso,	يا ملكًا على الآخرين، يا أيها النهر الدفاق
Que en fama claro, en ondas cristalino,	ذو الصيت الناصع، والموجات البلورية،
Tosca guirnalda de robusto pino	إكليل هائج من الصنوبر الصلب،
Ciñe tu frente, tu cabello undoso,	يطوق جبهتك وشعرك المتموج:
Pues dejando tu nido cavernoso	تاركًا عشك الكهفي في شقورة في الجبل الأكثر قربًا
	عبر طريقك الملكي من البلاط الأندلسي

وإذا جاز القول بإمكانية اتصال غونغورا بالشعر الأندلسي واطلاعه عليه وتأثره به؛ فإن القارئ لعدد من نصوص شعره عن الوادي الكبير-كالمترجم أعلاه وهو مجرد نموذج لا أكثر-يلحظ اختصاص نهر الوادي الكبير بكامل المقطوعة؛ إذ يبسط الشاعر حديثه فيه وعنه عاكسًا مساحة الأثر في نفسه تجاه هذا النهر؛ في حين أن الشاعر الأندلسي لا يربط تمامًا حول النهر بل ينطلق منه لعناصر أخرى في الطبيعة إجمالاً. إن الشاعر الإسباني القديم، مثلًا هنا بغونغورا، يتكئ على النهر كليًا جاعلاً منه منطلق الفكرة وأساسها لا يكاد يجاوزه إلى غيره، بينما شغل الشاعر الأندلسي بلوحة الطبيعة كاملة ولم يكن في تقاليده الشعرية التركيز في عنصر بعينه، حتى فيما عرف بـ "المائيات" من موضوعات الشعر الأندلسي،

اقترح أحد الدارسين للشاعر غونغورا تسميته بـ "شاعر الوادي الكبير"؛ عطفاً على كم النصوص الشعرية التي كرسها لهذا النهر وشدة تفاعله معه¹. والحق أن الوقوف على نصوصه التي خصصها للوادي الكبير مدهش من جهتين؛ أولاً: عمق تعاطيه مع هذا النهر وتنصيبه له رمزاً للفخامة والزعامة، وجعله علامة حيوية لأندالوثيا كلها وقرطبة تحديداً، وثانياً تقاطعه مع الشاعر العربي الأندلسي في تشخيصه له؛ فيجعله مرة رسولاً للمحبين، ومرة قبلة للغرام، ومرة عيناً باصرة والأوراق من حوله أهداباً²، وهذا الأخير مثلاً يذكرنا بقول شاعر الطبيعة الأندلسي الأول؛ ابن خفاجة³:

وغدت تحف به الغصون كأنها هذب يحف بمقلة زرقاء

Has visto, que en tus aguas se han mirado,	
Beldad cual la de Clori, o gracia tanta.	

⁴ de Góngora y Argote, Luis. *poesías escogidas*, Córdoba: Imprenta de Noguér y Manté, 1841, p. 16. ذي (غونغورا، لويس، قصائد مختارة). كل الترجمات الواردة للنصوص الإسبانية في هذه الدراسة هي من عمل الباحث.

¹ انظر Naranjo Mesa, Jorge Alberto. *Poesía del* . Colombia: Universidad Renacimiento y el Barroco de Antioquia, 2005, pp. 85-94.

(نارانخو ميسا، خورخي ألبرتو. شعر عصر النهضة والباروكو)
² السابق، ص ص 89-90.

³ ابن خفاجة-ديوان، تحقيق: عبد الله سندة، بيروت: درا المعرفة، 2006، ص 13.

De Segura en el monte más vecino	تتلوى فخماً، مندفعاً ومليناً بالزبد،
Por el suelo andaluz tu real camino	عندي أن من شطيك الخصبين
Tuerces soberbio, raudo y espumoso,	أطأ، مع أني عاشق شهير، رمالك النبيلة
A mí, que de tus fértiles orillas	ذات النبات المتواضع
Piso, aunque ilustremente enamorado,	قل لي إن كنت من بين الراعيات الشقراوات الصغيرات
Tu noble arena con humilde planta,	اللواتي نظرن فيك أنفسهن،
Dime si entre las rubias pastorcillas	رأيت حسناً كحسن كلوري ⁴ أو سعادة جمّة.

تتولى فخمًا، مندفعًا وملينًا بالزبد.

وفكرة المواجهة المحسومة والقوة النافذة تعيدنا إلى الشعر الأندلسي وثنائية النهر - السيف؛ فلا تكاد تجد وصفًا لجدول أو نهر أندلسي إلا وتحضر فيه صورة السيف المصلت حين يندفع النهر أو الجدول في طريق مستقيم أو شبه مستقيم؛ يقول الشاعر يصف جدولاً¹:

فإذا استقام رأيت صورة مصلت وإذا استدار رأيت
شكل سوار

ومن مظاهر المشاركة الوجدانية مع نهر الوادي الكبير عند الشاعر الإسباني القديم ممثلاً بغونغورا، ما نراه في نهاية المقطوعة نفسها حين نجده يستنزل النهر سريعاً من عرش الملك والقوة ليطلب منه المعونة في تحصيل خبر حبيبته "كلوري" من جهة كون النهر العظيم محطة تقف عليها الحسنات تماماً كما هو رمز الزعامة والجبروت:

قل لي إن كنت من بين الراعيات الشقراوات الصغيرات
اللواتي نظرن فيك أنفسهن، رأيت حسناً كحسن
كلوري

والحقيقة فهناك ملمح يستحق التأمل هنا وهو استيعاب الوادي الكبير للدلالات المتخالفة؛ فمن دلالة الفخامة والقسوة إلى البساطة والإنسانية التي استحال بها مرآة للحسنات يقفن عندها ليتعهدن محاسنهن، وهو علاوة على ذلك لطيف مع العشاق يألفهم ويألفونه ويخبر عنهم ويقرب بينهم. ثم إن انسرا به بقوة يقابله وداعة

لا يكاد الماء يستأثر بالحديث عن شراكة سائر عناصر اللوحة الطبيعية. لعل الشاعر الإسباني لم يكن بالقدر نفسه من الانهماك في الطبيعة والنظر إليها بوصفها ذاتاً كلية، لذا محض القصيدة للنهر وتمركز حوله، وليس بوسعنا أن نعد الأمر عيباً أو مزية بقدر ما هو تمثيل للموضوع في نفس الشاعر عند الفريقين.

في مستهل حديثه عن النهر، يصنع غونغورا منه إنساناً عظيماً استأثر بالملك دون سائر الأنهار، وهي المزية الثابتة التي يخلعها الشاعر على الوادي الكبير في جل نصوصه عنه. والجنوح للتشخيص من أول وهلة تصعيد للوادي الكبير من طبيعته الصامتة الميتة إلى مصاف الإنسانية العالية النبيلة ذات الحيوية والقيمة الوجودية العليا؛ فهو ملك يُدل عليه بوصفه لا باسمه.

ومع صفة العظمة والسيادة على الجنوب الإسباني كله، تقتزن جلالة الماء بجلالة الملك. ولا شك في أن الجمع بين العظمتين، والإصرار على معنى الزعامة والفخامة إيماء لفعل السيطرة والتحكم؛ فنهر الوادي الكبير هو مداد أنهار إسبانيا وكبيرها والروح المستحكمة على حياة الأرض وحياة الإنسان. ونلاحظ فكرة القوة والاندفاع والهيجان تؤطر صورة النهر في لوحة غونغورا، وهي ملائمة لفكرة القائد الفذ الذي يصل أمام خصومه بكل عنفوان وجسارة:
عبر طريقك الملكي من البلاط الأندلسي

¹ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 499.

الكبير في مسيرته الظافرة لا يتوقف عند حد الإمداد بعنصر الحياة، بل أيضا يقوم بتعهد الأرض والوطن فيحتويهما ويضمن طهارتهما. إنه دور وجودي خارق يمتد للإنسان والأرض التي يعيش عليها. وفي نص آخر يقول خوان ذي لا كويبا (1543-1612م)⁴:

De verde pasto y yerva está este puesto	أخضر العشب والنبات هذا الموضع،
En invierno abundante y en estío,	وفير في الشتاء وفي القيظ،
Por su fertilidad siempre dispuesto	لخصوبته مستعد دائما للحصول عليها في الحر والبرد.
Para tenerla en el calor y el frío.	البيتيس [الوادي الكبير] يبعد بالمقابل
Tiene una milla el Betis en opuesto	ميلا واحدا عن غواذيرا ⁵ محاذيا تقريبا للنهر،
De Guadaya casi junto al río,	وحين ينبع بتزايد يغسل، وقد انضم للبيتيس حملته.
Que cuando sale con creciente baña,	النبع الذي صيره القائد دون بيلايو ملكه،
Juntándose con Betis su campaña.	حين تملك بالسيف مياهها في مايو الحارق،

وسكون منه أيضًا؛ وداعة تحمله للجمود كالمرآة خدمة للعشاق، ليتشخص الوادي الكبير في الحاليين على نحو أعم من مجرد عرضية الوصف للطبيعة. ويبدو أن القاسم المشترك لنظرة الشاعر الإسباني القديم للوادي الكبير هو مشهد العظمة والبأس الذي يقرنه في الذهن بسطوة الملك وشدته، وأحيانًا يأتي فردًا بصفة القوة والتعالي كما هو حال ألونسو خيرونيمو ذي سالاس (1581-1635 م)¹ الذي يقول عنه²:

En la patria de Séneca, a quien baña Guadalquivir soberbio y arrogante, Ciudad en los ingenios felicísima Que con razón blasonan de sutiles	في وطن سينيك ³ الذي يغسله الوادي الكبير المتعجرف المتعطر مدينة سعيدة جدًا بعقرياتها تتباهى حقًا ببعد النظر.
---	--

الوادي الكبير هنا منعوت بالتعجرف والغطرسة، وهي غالبًا صفات تسوغها انطباعات القوة والغلبة التي يبثها في مشاعر الواقفين عليه والمتأملين له. إن الوادي

⁴ خوان ذي لاكويبا ذي غاروثا، شاعر وكاتب مسرحي إسباني ينتمي للعصر الذهبي، من مؤلفاته: "خرافات أسطورية وملحمة هزلية"، و "سبعة أمراء". النص الشعري المذكور من ديوانه: (فتح بيتيكا، ج 15، ص 25) De la Cueva de Garoza, Juan. *La Conquista de la Bética*. Madrid: imprenta Real, 1795, t. XV, p.25. بيتيكا من الأقاليم الرومانية القديمة، تنسب لنهر بيتيس وهو الاسم القديم للوادي الكبير، كانت عاصمتها آنذاك قرطبة ثم أصبحت إشبيلية في العهد القوطي. الشاعر هنا يحكي فتح إشبيلية من قبل الملك فرناندو المعروف بالقدّيس في القرن الثالث عشر للميلاد.

⁵ أحد فروع نهر الوادي الكبير، يمر بإقليمي قادش وإشبيلية.

¹ ألونسو خيرونيمو ذي سالاس بارباديئو، شاعر وقاص ومسرحي إسباني ينتمي لعصر الباروك في القرن الذهبي للأدب الإسباني. من أعماله: "ابنة ثيليسينا" (1612م)، و "الغبي المحظوظ" (1621م).

² Jerónimo de Salas Barbadillo, Alonso. *Obras de Alonso Jerónimo de Salas Barbadillo*, Madrid: Tip. de la Revista de Archivos, 1907-09, p.133.

(خيرونيمو ذي سالاس بارباديئو، ألونسو، أعمال ألونسو خيرونيمو ذي سالاس بارباديئو).

³ هو لوسيويس أنابوس سينيك، الفيلسوف والخطيب والمسرحي الروماني، ولد بقرطبة بإسبانيا وتوفي قريبًا من روما عام 65 م.

La fuente que el Maestre D. Pelayo Hizo suya, ganando con la espada El agua d ella en el ardiente mayo, Siéndole de los bárbaros vedada.	جاعلاً إياها ممنوعة عن البرابرة.
---	-------------------------------------

العتيقة حول ما يعنيه الوادي الكبير، والمياه عمومًا، للشاعر. فلقد تعامل الأندلسي مع الماء بوصفه وسيلة لاستجلاب عوامل المتعة، وأقامه محورًا لها أيضًا دون أن يترك ذلك في الشاعر أثرًا وجوديًا أو يستحيل رمزًا حقيقيًا على يديه، وكان منهمكًا في تشخيصه بدافع الانجذاب لشأن اللذة الحسية أكثر من الفكرية، في حين بدا الشاعر الإسباني القديم أكثر عمقًا من هذا الجانب تحديدًا.

إن نهر الوادي الكبير الذي كان هامشًا عند الشاعر الأندلسي ولم يكن عنده مركز التجربة الشعرية، استحال لدى نظيره الإسباني القديم مركزًا ومنطلقًا؛ فهو محور الحديث وعليه ومنه تنهض الفكرة. لكن رغم ذلك، لم يحقق الشاعر الإسباني القديم التماهي الغائر؛ إذ كلما دنا من ذلك توقف فجأة على التخوم وكأنه يتهيب فكرة الترميز هذه أو يكتفي منها بالإرهاص والاقتراب. ولعل الشاعر الأندلسي في هذا الصدد كان أكثر سلاسة في التعامل مع الماء ونهر الوادي الكبير، فالتجأ إليه لإضرام الفكرة المألوفة عند الأندلسيين كما أشرنا، ليكون النهر عنصرًا آخر يضاف لعناصر المتعة، فكان دوره بذلك مباشرًا وجليًا عكس الشاعر الإسباني الذي لم يحفل بأكثر من ملامسة الترميز، أو لم يكن على وعي كافٍ به على الأرجح.

رمزية الوادي الكبير عند الشاعر الإسباني الحديث
شهد العصر الحديث ثورة في مستوى العقل الأوروبي امتدت لمختلف المجالات ومنها الأدب والنقد الأدبي،

هنا اتخذ الوادي الكبير بعدًا تاريخيًا مقرونًا بالقوة في محيط ما عرف بالمقاومة (الإسبانية ضد العرب)، ممثلة برمزها التاريخي دون بيلايو (ت. 737 م)¹، وبحضور السيف الرامز للغلبة والقهر ليستقيم النهر دليلًا على المجابهة والبأس ضد الأعداء؛ النبع الذي صيره القائد دون بيلايو ملكه، حين تملك بالسيف مياهاها في مايو الحارق جاعلاً إياها ممنوعة عن البرابرة.

إن الاحتفاء بحياسة النهر وانتزاعه من العدو وحرمانه منه، إشارة إلى المحورية الوجودية له بالنسبة لإنسان إيبيريا الذي رمز به للنصر والغلبة وحروب الاسترداد الشهيرة، وكأننا نعود للإنسان منذ نشأته وعلاقته بالماء الذي هو دليل الحياة ما يجعل الاستحواذ عليه هدفًا استراتيجيًا. لقد استأثر الوادي الكبير بدلالة القوة بوصفه مصدرًا لها أحيانًا وسبيلًا إليها أحيانًا أخرى. وخلاصة الكلام، أن واقع الشعر في هذه المرحلة يطرح تباينًا ملموسًا بين النسختين الأندلسية والإسبانية

¹ دون بيلايو، مؤسس مملكة أستورياس في الشمال الإسباني التي شكلت البذرة الأولى لما عرف بحروب الاسترداد الإسبانية.

أثراً بالغاً يجعله ينظر إليه بوصفه خلاصة تمثيل الحياة في مقابل الموت. ولمفهوم الحياة والتجدد بوصفهما علامة متعلقة بنهر الوادي الكبير تمثيلات صغرى يمكن تلمسها في أثناء النصوص الشعرية محل الدراسة، وربما تجسدت، وفق ما يظهر من النصوص، في التالي:

النبع والجريان/الولادة والحركة:

يكشف واقع الدراسة أن أول ما لفت عناية الشاعر الإسباني الحديث في نهر الوادي الكبير هو الانبثاق أو النبع ومن ثم الانطلاق والتدفق، وهي ظاهرة رأى فيها الشاعر الإسباني أبعد من الحالة الطبيعية المألوفة. في السونيتة المعنونة بـ *Guadalquivir en su nacimiento, en Cazorla* الكبير، في ولادته في كاثورلا¹ للشاعرين الأخوين سيفارين وخواكين ألباريت كينتيرو (ت. 1938 م و 1944م)¹، الذي قيل إنه نقش في شاهد حجري²؛ نقرأ النص التالي:

¡Detente aquí, viajero! Entre estas peñas Nace el que es y será rey de los ríos, Entre pinos gigantes y bravíos,	قف هنا أيها المسافر! بين هذه الصخور ولد من كان وسيكون ملك الأنهار، بين أشجار صنوبر عملاقة وبرية تهدهده،
---	---

ولم تكن إسبانيا بمعزل عن تلك التطورات فهبت عليها رياح الرومانسية التي أذكت جمرة الشعور الوجداني حيال الموجودات، مروراً بالبرناسية والواقعية والرمزية. كل ذلك انعكس على رؤية الشاعر الحديث للظواهر من حوله، وكانت الطبيعة مادة مناسبة لتجسيد مكتسباته حتى يمتزج الوجود بالإحساس في رموز وعلامات.

وبناء على استقراء عدد من النصوص الإسبانية التي قدرنا كفايتها لمنح صورة عامة لما يمثلها نهر الوادي الكبير من رمزية في وجدان الشاعر الإسباني الحديث الذي أصبح ينظر لما حوله بمزيد من الوعي؛ نجمل هذه الترميزات في شكل كتل ثنائية تعبر في عمومها عن التماهي الكائن بين المادي والفكري:

أولاً: الحياة والتجدد

لا يخفى ما لعنصر الماء من تأثير فيزيائي يتعلق بالحياة ومن ثم الوجود، ولطبيعته المتحركة أثر في التعبير عن جوهر الحياة وعجلته الدائبة المتجددة. ولا شك أن نهر الوادي الكبير، في جوهر طبيعته المتمثلة في ديناميكيته المترحلة ذات التمدد الجغرافي باتجاه المحطة الأخيرة (المحيط الأطلسي)، دون أن يكون هناك ما يحظر عليه الحركة؛ يمثل الحياة باختصار تاركاً في نفس الشاعر الإسباني الحديث والمعاصر

² Eslava Galán, Juan, *Viaje por el Guadalquivir y su historia*, capítulo 8.

(إسلابا غالان، خوان، رحلة في الوادي الكبير وتاريخه)

¹ الأخوان سيفارين وخواكين ألباريت كينتيرو، شاعران ومسرحيان إسبانيان، ولدا في أطريرة (إشبيلية)، تميزا بغزارة الإنتاج والحس الكوميدي العالي خاصة في المسرح، وقد بلغ إنتاجهما قرابة مئتي عمل، منها "الزهور"، و " العبقري السعيد". طبعت أعمالهما الكاملة في مدريد في اثنتين وأربعين مجلداً.

يبدو أن صورة الوادي الكبير، الملك المتوج على سائر
الأنهار، من موروثات الشعر الإسباني منذ القديم كما
شهدنا عند لويس ذي غونغورا على سبيل المثال، ما
يعني الشعور به وجودًا حيًا تستمد منه الجلالة
ويستجلب الإقدام. وانبثاق هذه الحياة الفخمة وانبعاثها
من العدم لا ينبغي أن يكون حدثًا اعتياديًا بل مختلفًا
وتاريخيًا، لذا وصف الشاعر ولادة النهر بالصعبة من
خلال الإشارة إلى الصخور. النبع أو الظهور في
النص معادل للولادة التي هي شرارة الحياة الأولى
وإيذانها الرسمي، ولا شك أن تصاعد المياه من بين
الصخور المشقوقة والمختبئة في الزوايا البينية تمثل
لبزوغ الطفل من موضع الولادة المختبئ في جسد
المرأة، وهو خروج بتطلع للحياة وتوثب إليها، كما هو
حال اندفاع الماء من زوايا المكان:

بين هذه الصخور ولد من كان وسيكون
ملك الأنهار

إن مقابلة النبع المائي بالولادة وبالتالي نجوم الحياة
وانبثاقها، خيال منيف وتشخيص ناضج، جعل الفكرة
ولادة إنسانية فاخرة حين قرن النهر بالملك. وهذا
الوصف بالملك متصل بحديث ضمني يشخص كل
الأنهار التي تنبع كما يخرج الصغير من رحم أمه فإذا
هي كالناس في الحياة والحركة، وفي التفاوت في
القيمة، تحفها العناية كالولدان مع حظوة خاصة للوادي
الكبير:

بين أشجار الصنوبر العملاقة والبرية التي تهدده

Que arrullan su nacer y
ásperas breñas.

Él reflejó otro tiempo las
enseñas,

Las armas, los corceles
y atavíos

De razas imperiosas,
cuyos bríos

Postráronse en sus
márgenes risueñas.

Él se ensancha entre
olivos y triguales,

Cruza pueblos de
hechizo y de poesía
y al mar corre a rendirle
sus cristales.

Mas como lleva sal de
Andalucía,

Sus aguas vuelven a las
del mar iguales,

Para llegar más lejos
todavía...

Y así van sus caudales,
Triunfantes en el seno
de las olas,
a las playas de América
españolas

وبين الأدغال الخشنة.

لقد عكس في زمن
مضى الرايات،

والأسلحة، والجياد
المطهمة والزينة

ذات الأصول
المتعالية، تندفع

ساجدة في حواشيه
المتبسمة.

إنه يتمدد بين أشجار
الزيتون وحقول القمح،

يعبر قرى من السحر
والشعر

ويجري نحو البحر
ليسلم له بلوراته.

لكن لأنه يحمل ملح
أندالوثيا، تعود مياهه

لمياه البحر بالمثل،
للوصول لما هو

أبعد... وهكذا تتجه مياهه

المتدفقة، ظافرة في
جُبر الأمواج،

إلى الشواطئ الإسبانية
في أميركا

¡Oh Guadalquivir! Te vi en Cazorla nacer; hoy, en Sanlúcar morir. Un borbollón de agua clara, debajo de un pino verde, eras tú, ¡qué bien sonabas! Como yo, cerca del mar, río de barro salobre, ¿sueñas con tu manantial?	أيها الوادي الكبير! رأيتك قد ولدت في كاثورلا واليوم تموت في سانلوكار فقاعة كبيرة لماء صافٍ تحت صنوبر أخضر، لقد كنت أنت، كم كان جميلاً حسك! مثلي، قريباً من البحر، نهرٌ من طين مالح أتحلم بنبعك؟
---	--

لقد صادق الشاعر على صفة البشرية الممنوحة للنهر وهي الحياة في البدء والنهاية، وعبر بالولادة عن نبع النهر واصلاً ذلك بالمكان بوصفه هوية عليه كما يقيد المولود في الأوراق الرسمية بالساعة ومكان الولادة. وفي الإشارة هنا إلى البعد الصوتي ربط بالحياة (كم كان جميلاً حسك!)؛ فالنهر يهب التماعة التدفق والحركة وهي فيه دليل الوجود كما هي في البشر تماماً؛ إذ الحركة هي الحياة والسكون علامة الموت، والحركة جمال لما تتضمنه من التجدد؛ فكل جديد

ولأن الحديث مشمول بحس العظمة والظفر، نرى الشاعر يختار الجريان لوصف حركة النهر، وهو ليس هروباً كما سنرى عند غيره، بل علامة الحيوية والتوثب والإقدام. كما أنه اندفاع لا يعرف أضيق الطريق كما هو شأن الحيوانات متواضعة القدرات، بل تدفق في مسالك رحبة من الحقيقة والخيال " الشعر والسحر "، حتى ليشمل الأمر ما هو أبعد من شواطئ إسبانيا في إسبانيا لتمتد صورتها لأمريكا اللاتينية، في إشارة لاتساع الرقعة الملكية الظافرة التي اتخذ الوادي الكبير معادلاً لها:

إنه يتمدد بين أشجار الزيتون وحقول القمح،

يعبر قرى من السحر والشعر

ويجري نحو البحر ليسلم له بلوراته.

لكن لأنه يحمل ملح أندالوثيا، تعود مياهه

لمياه البحر بالمثل،

للولصول لما هو أبعد...

وهكذا تتجه مياهه المتدفقة، ظافرة في جحر الأمواج،

إلى الشواطئ الإسبانية في أميركا

وهذا أنطونيو ماتشادو (1875م-1939م)¹ في إحدى

مقطوعاته يدور على الفكرة ذاتها²:

² Machado Ruiz, Antonio. *Nuevas canciones. Poesías completas*, España: Rincon Castellano 1997 – 2011, p. 33 (edición digital).

(ماتشادو، أنطونيو، قصائد جديدة. قصائد كاملة، "نشرة إلكترونية").

¹ أنطونيو ماتشادو رويث، شاعر إسباني وأصغر ممثل لجيل 98، وهو الأخ الأصغر لمانويل؛ الشاعر الشهير الآخر. ترك كمّاً كبيراً من الأعمال الأدبية من دواوين ومسرحيات وأعمال نثرية أخرى. من أعماله: "رسائل إلى بيلار، و"الرجل الذي مات في الحرب".

Y se arrojaba al mar definitivamente desde Córdoba	لمساره روغان فارس يهرب
Dando a su curso un quiebro de jinete que huye y que decide	ويقرر المضي في ممر باتجاه الجنوب
Tirar por una senda más al sur	يقطعه ويدركه قبل البحر ،
Que corte y que le alcance antes el mar, antes la apoteosis o la muerte.	قبل المجذ أو الموت.

رغم ما يحيط هذا النص والذي يليه من شعور قاتم، زاوجت الشاعرة بين النهر والحياة عن طريق الإشارة إلى حتمية العبور والانتقال: (هذا النهر العابر)، دلالة على الحيوية المحتمة في المكان (قرطبة وإشبيلية)، في صفة إنسانية معبرة، وكأنه رحالة لا يمل من التنقل والعبور بالمواضع التي جاءت هي الأخرى مفعمة بالحياة: "روح قرطبة وإشبيلية"، في تفاعل مباشر بين أجزاء الطبيعة تحكي تفاعل الإنسان الحي بها.

والواقع أن النص بعلاماته الحيوية يعاني ضرباً من الحركة المتألّمة، فهو متدفق على مضض بسبب حمله "الدم والتهديدات"، وهي دلالات اعتلال في الحياة لكنها لا تعفي النهر من لازمة التدفق الطبيعي ولا تعيقه

نضراً في العين وفي سائر الحواس، وجمال الحياة عموماً مرده خطابها للحواس خلاف الموت والسكون والجمود. ولافت أن ندرك أن أنطونيو ماتشادو المنتمي لجيل 98 قد عرف بتأثره بهنري برغسون، الفيلسوف الفرنسي الشهير (1859-1941م) الذي توفر في فلسفته على أفكار الديمومة والتوثب والتجدد في نظرته للوجود والإنسان، ومن هنا نفهم رمزية الوادي الكبير عند أنطونيو ماتشادو في كونه (أي النهر) خير من يجسد هذه الفكرة الفلسفية الوجودية¹.

أما خير من يمثل هذه الفكرة من الشعراء الإسبان المحدثين فأراها الشاعرة الإشبيلية ماريّا دي لوس رييس فوينتس (1927-2010 م)²، فمن يتأمل شعرها في هذا النهر النابض في مدينتها ومن جوارها، يدرك عمقاً كبيراً في التصورات وقدرة عالية على الجمع بين وجودية النهر ووجودية الإنسان³:

Ya este río cruzando por el alma	هذا النهر العابر خلال روح قرطبة وإشبيلية
de Córdoba y Sevilla,	يحمل الدم والتهديدات
Se llevaba la sangre y los suspiros, desde la savia al pétalo	من الرحيق إلى بتلة قرطبة وإشبيلية
de Córdoba y Sevilla.	يلقي بنفسه في البحر نهائياً من قرطبة معطياً

لمجلتي: "إشبيلية" و"شعر"، لها عدة دواوين، منها: "مراثي الوادي الكبير"، و "بنر يعقوب"، و "نسانم الحب".

³ "Poema para una comparecencia en la Fiesta Mundial de la Poesía Árabe (Sevilla para Córdoba)" en *Fiesta de la Poesía Árabe. IX Centenario de Aben Házam*, 12 al 18 de mayo. Córdoba, 1963.

(قصيدة للمشاركة في حفلة عالمية ليوم الشعر العربي، المئوية التاسعة لابن حزم).

¹ عن تأثير بيرغسون في أنطونيو ماتشادو؛ انظر مثلاً: Glendinning, Nigel: "The philosophy of Henri Bergson in the poetry of Antonio Machado", *Revue de littérature comparée*, 36 (1962), pp. 50-70.

(نيجيل، غليندينغ، "أثر فلسفة هنري بيرغسون في شعر أنطونيو ماتشادو").

² ماريّا دي لوس رييس فوينتس، شاعرة إسبانية ولدت بمدينة إشبيلية، تنتمي للأكاديميات الملكية بقادش وإشبيلية ومالقة وقرطبة، وتعد مؤسسة

con el desgarramiento de la huida . Que el hombre, como el río, es un curso, una fuga, un arrepentimiento, que primero avasalla y se agazapa a veces, pero sigue adelante, en la inútil carrera del minuto a minuto. Los hombres o los ríos, disparados, van hacia la constancia de un camino que les lime las rocas y les haga contornos de dulzura. Se desvían sus fuerzas y hacen marca distinta a la soñada, la que pudo haber sido pero que se resiste y allí en la resistencia abandonamos,	ندم؛ يمضي في البدء مندفعًا ثم يستكنّ في حين، لكن يظل قدمًا، في الركض -غير المجدي- للدقيقة بعد الدقيقة. الأشخاص أو الأنهار، مندفعين، يجنحون إلى يقين طريق يذلل أمامهم الصخور ويصنع لهم نطاقًا عذبًا. قواهم تتحرف وجهتها فتترك أثرًا مختلفًا عما حلموا به؛ مما كان بمقدوره أن يكون لولا التمتع وهناك حينها إما أن نستسلم، أو نضرب بشدة، كولع متيقن من كل الحجج، أو نكيف الواقع لذوقنا، هكذا، حتى إذا دنت النهاية، رحلنا
--	---

عنها، كما الاعتلال غير مانع للحياة بالضرورة، فهي
ماضية للأمام قطعًا. وعبارات مثل "يلقي"، "هرولة"،
"يهرب"، "المضي"، توثق عملية التدفق بغض النظر
عما يعترئها من خلل، وربما كان التعبير بـ"هرولة"، و
"هرب" ممعنة في جعل الحركة والحياة هنا واجبة رغم
الإشكالات والمخاطر التي تكون سببًا في المقاومة
أحيانًا؛ إذ ربما كان الهروب مقاومة للخطر واستدامة
الحياة.

وفي نص آخر بعنوان "النهر" نجدها أكثر جرأة في
ترميز الحياة والموت منطلقة أيضًا من الوادي الكبير؛
تقول¹:

El río es como un brazo de justicia con su sentencia al fin: el tránsito, el ejemplo. Y en todos los rincones de la tierra brotan los ríos y los hombres, que fluyen, y discurren, que abocan en su mar tan sentenciado definitiva fuente donde hundirse	النهر مثل ذراع عدالة حكمه يأتي في الأخير: العبور، العبوة. وفي كل زوايا الأرض تدفق الأنهار والبشر، تسيل وتجري، لتسكب في بحرها - المحكوم عليه بشدة- الينبوع الأخير حيث الغرق مع تمزقات الهروب. إن الإنسان، كالنهر، جريان، هروب،
---	--

(فوينتيس، ماريا دي لوس رييس. مراثي الوادي الكبير).

¹ Fuentes, María de los Reyes. *Elegías del Uad el-kebir*. Excmo, Sevilla: Ayuntamiento, 1961, p. 17 (poema El Río).

<p>con ansias de domar a las hirientes peñas con virtud de caricia si por el tierno valle, bebiéndose el tesoro de toda Andalucía, trazando la rúbrica por este Sur de España, mientras que salta el aire de una sierra a otra sierra pero él sigue y persigue por su fluida columna que busca la sentencia del Océano, la meta irremediable de donde han de brotar, ay sí, las nuevas aguas, porque el río delata su parecido al hombre. Y se hace la justicia de su curso, su curso por la tierra, por la historia, y no hay mutilación que nos lo niegue.</p>	<p>في حين يقفز الهواء من سلسلة جبال إلى سلسلة أخرى لكنه هو يتابع مقتنيًا ظله المنساب الباحث عن حكم المحيط [الأطلسي]، تلك الغاية المشككة التي منها تنبع، أي نعم، المياه الجديدة، والنهر يشي بشبه بالإنسان. هناك تتحقق العدالة لمجراه، مجراه في الأرض، وفي التاريخ، ولا بتر يحجبه عنا.</p>	<p>o golpeamos mucho, como pasión segura de todas las razones, o se deja lamida, con nuestro gusto, así, para que sepa al testimonio fiel de última instancia. Y el río es como un trámite vigente, y un hombre es como un río, de la raíz del tiempo al polen mas alado, de raíz de raíces, de la sorpresa al mar. Hay ríos pequeños y sin lucha, que llevan la paciencia de enarbolar silencios sin leyenda o razón que atribuirse. y hay ríos que son grandes, como este que discurre a mi costado y que lo sé común a tanta entraña, con brazos extendidos de ambición o de ensueño,</p>	<p>بشعور أن قد ذقنا حلاوة ما. النهر مثل إجراء نافذ، والإنسان مثل النهر، من جذور الزمن إلى اللقاح الخفيف، من جذر الجذور، من المفاجأة إلى البحر. هناك أنهار صغيرة لا تعرف صراعًا، شديدة الصبر على الصمت لا طموح لها ولا عظيم تطلع إليه تنتسب. وهناك أنهار كبيرة، كذلك الذي يجري بجانبني وأعرفه مألوفًا ومشبهًا لحيوات كثيرة، بأذرع مبسوطة من مطامع أو من أحلام، مع توق إلى ترويض العقبات مع رفق ونعومة، تحتسي كنوز أندالوثيا كلها، راسمة معالمها في هذا الجنوب الإسباني،</p>
--	---	--	--

يتقاطع هذا النص مع سابقه بوصفهما تأملات راسخة
في نهر الوادي الكبير، تجمععه بالإنسان تحديدًا. في

لقد آخت الشاعرة بين الطبيعة والإنسان، ولعل هذه الطبيعة الممثلة بالنهر، قد حققت المشابهة الوجودية بالإنسان وبالحياة أكثر من غيرها حيث هيئة الحياة تتجسد في الجريان والتدفق: "تدفق، تسيل، تجري..."، وهي أبرز خصائص المياه الحية (إن صح التعبير) إزاء المياه الراكدة الميتة. وتمعن الشاعرة في تطلب مشاهد الشراكة في الحياة بين النهر والإنسان:

إن الإنسان، كالنهر، جريان، هروب،

ندم؛ يمضي في البدء مندفعاً

ثم يستكن في حين، لكن يظل قدماً،

في الركض - غير المجدي - للدقيقة بعد الدقيقة.

انطلاقاً من الخصائص الوجودية: النبع والحركة، تتناسل سمات أخرى مشتركة بين النهر والإنسان عن طريق المقاربة بينهما بالتوظيف الدقيق للتشخيص؛ فالهروب ثم الندم، صفات بشرية، فلا يندم إلا البشر ذوو الحياة وليس في الأنهار إلا من قبيل المجاز الدقيق. وفعل الندم في النص جاء مسبوقاً بعمل غير مرغوب؛ فلقد عطفته الشاعرة على فعل الهروب وجعلت هذه الصفات أصيلة في النهر على اعتبار أنه المشبه به والإنسان المشبه، وهو قلب للمألوف، لتؤكد المشاركة التامة بينهما في السعادة والبؤس، وانظر لتعبيرها بـ "تمضي" و "الركض" وقوة التلازم مع صفة الحياة المرتحنة بالحركة، وهي حركة دائبة في جوهرها:

النص السابق تعالق النهر مع الحياة يجمعهما التدفق والحركة المصورة بـ "العبور": "هذا النهر العابر خلال روح قرطبة وإشبيلية". وهنا النهر ذراع العدالة الذي يمضي نافذاً بقوة ليصل منتهاه ويدرك مبتغاه، كالحياة في مصيرها النافذ المدلول عليه بالحركة ذات المبتدأ والنهاية:

النهر مثل ذراع عدالة

حكمه يأتي في الأخير: العبور، العبارة.

في هذا الموضع لمحة طريفة تدفعنا لتفهم استهلال الشاعرة نصها متكئة على مصطلح "ذراع عدالة"؛ فقد درست القانون في مدينتها إشبيلية، الأمر الذي أتاح لها النظر إلى الوجود بوصفه قوانين نافذة غايتها العدل، وقد علقت إحدى الدراسات لشعر الشاعرة على التفاتتها للقانون بالقول إنه: "ولد من رغبة في العدالة"¹. فبالرغم من تباين الأحكام النافذة في الناس والحيوات بما يوحي باللاعلاقة، فلا شك من سيادة عدل الموت الذي هو غاية الإنسان ومصيره، لا يتملق أحداً ولا يفلت منه كائن حي.

والوادي الكبير يضارع الإنسان في جريانه في الأرض وديمومة ركضه في الزمن وراء مطامعه وأحلامه، ولذا زاجت القصيدة بين حديث النهر وحديث البشر:

وفي كل زوايا الأرض

تدفق الأنهار والبشر، تسيل وتجري،

(مارتينيث أورتيجا، كارمن إيلينا. شعر ماريا دي لوس رييس فوينتيس. رسالة دكتوراه).

¹ Martínez Ortega, Carmen Elena, *La obra poética de María de los Reyes Fuentes*, tesis doctoral, Sevilla, 2011, p. 223.

هيراقليديس: "أنت لا تسبح في النهر مرتين"، في معرض تأكيده على فكرة التبدل والتجدد، وإلى الفرنسي "برغسون" في تأملاته عن الوجود الواعي، الذي يرى الحياة في الديمومة والتغير.

وإمعاناً من الشاعرة الإشبيلية في الدوران على موضوع التدفق والجريان/الولادة والحركة، نراها تحدثنا عن النهر الإنسان الذي "يحتسي كنوز أندلوثيا كلها"، وفي فعل الاحتساء المشخص للنهر، إشارة للحياة من طريق الماء الذي هو سببها حين يتدفق ويجري. وهنا مفارقة لطيفة مردها ازدواجية الدلالة؛ فالماء -الذي يحتسي- مشروبٌ وشارب، فإذا الحياة فيه مضاعفة، وربما كان هذا شرحاً لفكرة الأنهار العظيمة والكبيرة، ولا شك أن نهر الوادي الكبير كذلك، وفكرة احتساء الكنوز إحياء بفخامة هذا النهر وقيمته؛ فلا يقتات إلا على عظيم. ونهر الوادي الكبير "يتابع مقتفياً ظله المنساب" فجريانه دائم وحياته أبدية، كالإنسان الذي يمشي في مناكب الأرض لغير وجهة يقينية-وهذا ما أرادته الشاعرة، الإنسان في مشيه على غير هدى في هذه الدنيا كنهر الوادي الكبير الذي رغم عظمته لا يعرف على اليقين مصيره، أو يعرف أنه محتوم بالتلاشي في المحيط فيسير على هدي ظله المظلل، كالإنسان القوي المندفع باستسلام إلى النهاية. إنه الإشكال الوجودي الأزلي الذي يلح بسؤاله على الإنسان -في شكل النهر- عن جدوى الحياة وقيمة الوجود، وهنا تتراءى تشاؤمية شوبنهاور وعدمية نيتشة: لكنه هو يتابع مقتفياً ظله المنساب

"الدقيقة بعد الدقيقة" ينتابها بعض السكون الذي لا يضر بالصفة اللازمة ابتداءً، وهي صفة الحياة. ثم تمعن الشاعرة في الجمع بين الإنسان والنهر مع أصالة في النهر فيما يخص صفات البشر؛ فتجعل لكليهما قيمة تتوقف على مقدار الهمة والتطلع؛ فكما أن هناك بشراً كباراً وعظماء فهناك أنهار عظيمة وكبيرة والعكس صحيح. إن النبع والجريان أو الولادة والحركة، قيم محققة، لكن الفارق يكمن في مستوى التحقق ودرجته المرتبط أساساً بدرجة الطموح والتطلع. إنها صفات بشرية تعيدنا للتشخيص الجامع بين النهر والإنسان بعد تجاوز مرحلة الوجود والفعل، وكما أن الإنسان متفاوت الهمة والتطلع كذلك الأنهار بعضها واسع المطامع والتطلعات فيكون كبيراً كالوادي الكبير وبعضها الآخر صغير لصغر الهمة والنظر؛ لذلك لا تعباً بالإنسان الصغير/الأنهار الصغيرة، فالحياة هناك محدودة القيمة والإضافة:

هناك أنهار صغيرة لا تعرف صراعاً،

شديدة الصبر على الصمت

لا طموح لها ولا عظيم تطلع إليه تنسب

وهناك أنهار كبيرة، كذلك الذي يجري بجانب

وأعرفه مألوفاً ومشبهاً لحيوات كثيرة،

بأذرع مبسوطة من مطامع أو من أحلام

إنه التوثب نحو الاستمرار وتجديد الحيوانات، وما النهر في تجدد أمواهه المتدفقة إلا الإنسان نفسه في تجدد كينونته وجنسه، وصراعه المستميت في سبيل ديمومة وجوده وتدفعه. هذا المشهد يعيد الذاكرة لعبارة اليوناني

قرطبة الصامته ويحرمها المنام.

ثنائية النبع والجريان تطل من جديد تمثيلاً للجانب الوجودي البشري المحيل إلى الحياة وانبعاثها؛ فقد زلج الشاعر بين ضوء الفجر والماء، وجعل الحدث ولادة والوادي الكبير الأم أو القابلة التي تمنح الحياة أو تجري لتبشر بها، ويظل النور كالمؤشر أو القرينة لهذه الحياة يشع بهدوء على جوار المدينة (قرطبة)، وكأنه يداعبها ويوقظها، وجميعها أفعال الكائن الحي المتوثب للحياة مقابل الطرف الآخر الموصوف بالسكون؛ فإذا النهر الكبير رمز الحياة وتولدها وحاضن النور والحيوية.

وفي مناسبة أخرى، في قصيدة رثائية يقول ريكاردو مولينا أيضاً²:

Amanece en las calles. Córdoba se despierta. Ya es de día. Te amo. Ya van camino del río los areneros con sus palas, sus asnos. El invierno se va. La niebla se disuelve en torno de los álamos. Crecido viene el río como mi corazón. Tu recuerdo desborda como el río mi vida inundándola toda con sus aguas violentas donde flotan almiarés,	يطلع الصباح في الشوارع. تستيقظ قرطبة إنه الصباح بالفعل. أحبك. بائعو الرمال في طريقهم للنهر، بمجارفهم وحميرهم فصل الشتاء يذهب. الضباب يتلاشى حول شجر الحور.
---	---

الباحث عن حكم المحيط [الأطلسي]،

ثم تأتي لوحة الختام تلخيصاً لعموم الفكرة:

تلك الغاية المشكلة

التي منها تنبع، أي نعم، المياه الجديدة،

والنهر يشي بشبهه بالإنسان

هناك تتحقق العدالة لمجره،

مجره في الأرض، وفي التاريخ،

ولا بتر يحجبه عنا

لقد تماهى الوادي الكبير بالإنسان تماماً؛ فالنبع الحياة، وهو في جريانه على الأرض محكوم بضرورة السعي ومواجهة النهاية المحتومة التي ينطوي فيها البشر جميعاً وهذه هي العدالة التامة، وكما يرحل الإنسان عبر التاريخ ويشكله، كذلك نهر الوادي الكبير الذي يتقيد في سجل التاريخ ثم لا يمكن لأي قوة أن تمنع اتصاله بالحاضر والمستقبل، تماماً كما هو الإنسان الخالد.

ويقول ريكاردو مولينا (1968-1916م)¹:

Alba la luz nace del agua. Guadalquivir la trae pálida. Empieza siendo un beso, un ala, que acaricia y desvela el alma de Córdoba dormida, de Córdoba callada.	وقت الفجر يولد النور من الماء يأتي به شاحباً الوادي الكبير يبدأ قُبلةً جناحاً يداعب قرطبة النائمة
--	--

² Molina, Ricardo. *Aún es Córdoba Bella*. Antología poética. Selección y prólogo: Carlos Clementson, España: Junta de Andalucía, 2017, p. 52.
(مولينا، ريكاردو. لا تزال قرطبة جميلة. مختارات شعرية).

¹ ريكاردو أنطونيو مولينا، شاعر إسباني، كان عضواً في مجلة كانتيكو Cántico، المعنية بالفنون، وعرف بشغفه الشديد بفن الفلامنكو خاصة. من أعماله الشعرية: "نهر الملائكة"، و "مرثية مدينة الزهراء"، ومن مؤلفاته النثرية: "أسرار فن الفلامنكو، و "الوظيفة الاجتماعية للشعر".

ذكرى الحياة كالنهر، والنهر لا يكف عن التدفق مثل الحياة التي لا تتوقف، والنهر كالحياة يحمل على مياهه الجمادات والحيوانات ويندفع بها بقوة كالحياة التي تتسع لكل ذلك وتمضي به قُدماً نحو مصير محتوم.

ويقول أنطونيو ماتشادو¹:

... Y brotan en el pecho de la gente cuando ríe o cuando llora. El caso es saber sentir; lo demas tiene muy poca importancia. ¿Usted no ha visto, en la Sierra de Cazorla, nacer el Guadalquivir entre piedras, gota a gota? Pues así nace un cantar, como el río y baja a Córdoba y a Sevilla hasta perderse	تثبت في صدور الناس حين يضحكون أو يبكون المسألة هي أن تعرف، أن تشعر وما عداه قليل الأهمية ألم تر حضرتك في سلسلة جبال كاثرولا ولادة الوادي الكبير بين الحجارة، قطرة فقطرة هكذا تولد أغنية ما كالنهر وينزل إلى قرطبة وإلى إشبيلية حتى يتلاشى في البحر الهائل ويغرق
--	---

animales que aúllan, negros troncos de árboles y despojos y ruedas.	يأتي النهر متتامياً كما قلبي ذكراك تفيض في حياتي كالنهر مغرقاً إياها كلها بمياهه العنيفة حيث تطفو أكوام القش، والحيوانات العاوية، وجذوع سوداء من أشجار وعجول، وعجلات
--	--

لاحظ تعلق نهر الوادي الكبير بالحياة وتجدها معه؛ فما أن تشرق الشمس وتبدأ الحياة في التدفق من جديد حتى يأتي على ذكر الوادي الكبير بوصفه معادل ذلك كله؛ فالحياة تنبجس في اتجاهه حينما يتوجه إليه بائعو الرمل بأدواتهم ودوابهم بعد أن أذن لهم نور الصباح بالتدفق من جديد. وهو بدوره يتدفق متزايداً، والفعل (crecer) في الإسبانية يأتي بمعنى النمو وهو ما قصده الشاعر هنا، وهو فعل التطور في الحياة والتدفق فيها انطلاقاً من نقطة الولادة أو البداية التي ناب عن الرمز لها نور الصباح الذي يعد المكافئ للنهر. تأمل أيضاً كيف يرتبط نهر الوادي الكبير بالحياة مرة أخرى في آخر القطعة الشعرية هنا، فإذا كل منهما لازمة للآخر:

ذكراك تفيض في حياتي كالنهر

(ماتشادو، مانويل وأنطونيو، الأعمال الكاملة).

¹ Machado, Manuel y Antonio. *Obras Completas*. Madrid: Plenitud, 1957, 3^o ed., pp. 458, 479.

-النهاية والتلاشي/الموت

لا تكاد تقرأ شعراً لأنطونيو ماتشادو مثلاً، موضوعه نهر الوادي الكبير إلا ويستجلب له حديث البحر (المحيط الأطلسي)، رامزاً به للنهاية، مستمراً واقعية الاتصال الطبيعي للنهر بمصبه الأخير في المحيط. وقد جرب ماتشادو في هذا نوعاً من التأثر والتأثير؛ فاستعاد الشاعر الشهير خورخي مانريكي (1440 - 1479 م)¹ الذي جرى الربط بينه وبين أبي البقاء الرندي (1204 - 1285 م) الشاعر الأندلسي الشهير، من جهة تأثر مانريكي في مرثيته الشهيرة لوالده بأبي البقاء الرندي في قصيدته النونية الذائعة في رثاء الأندلس. ويبدو أن هذا الأثر المتعلق بالموت هو ما يجمع كلا الشاعرين، ويظل الوادي الكبير في استهلال مجراه وختامه خير من يمثل الإنسان في طلوعه للحياة ثم أفول نجمه نهاية الأمر. يقول خورخي مانريكي في مرثيته لوالده²:

Nuestras vidas son	حيواتنا هي الأنهار
los ríos	التي تذهب إلى البحر
que van a dar en la	الذي هو الموت
mar,	هناك السادة يذهبون،
que es el morir:	حقاً عليهم ينتهون
allí van los señorios,	وينصرمون
derechos a se acabar	هناك الأنهار الفياضة
y consumir;	هناك الأخرى المتوسطة،
allí los ríos caudales,	والصغيرة

en la mar tan grande	
y honda.	

في النص يتمثل أنطونيو ماتشادو فعل الولادة ليتصدر استدعاءه لنهر الوادي الكبير الذي ينبع من بين الحجارة كما ينجم المولود من بين المرأة. هذه المرأة كائن جلد صامد أمام الخروج المؤلم للحياة الجديدة، كالحجارة تظل جامدة رغم انبعاث المياه من خلالها. إنه انبعاث لطيف وهادئ في أوله، يجمع النهر والإنسان؛ فتولد الماء يبدأ "قطرة فقطرة" والولادة خروج حذر لحياة تدب دبيباً ثم تجري جريانا وهي صفة الماء تماماً. والفعل الهادئ في النص مشبه أيضاً بمطالع الأغنيات التي يعبر عنها بالولادة "هكذا تولد أغنية ما"، فبدايات الأغاني التي يعينها تتولد بهدوء من فكرة لشعر ولحن أولي، وربما انطلقت بهدوء يسري في الروح، ولاحظ أنه أثر تصدير هذا الجزء من المقطوعة بالفعل (brotar/ينبت)، في دلالة على تولد سلس كبزوغ النبتة واسترسالها بهدوء نحو السماء. إنها ولادة غير صاخبة، رزينة جداً تتلوها حركة متأنية كتأني الشخص الذي يهبط من مرتفع "وينزل إلى قرطبة وإلى إشبيلية"، وهذا هبوط مكاني جعل الولادة إنزلاً وجعل قرطبة وإشبيلية بمثابة الأرض التي ينزل عليها المولود بهدوء ثم يدب فيها مستغرقاً عمره حتى النهاية أو الوفاة التي أشار لها الشاعر، وسنتناولها في قادم السطور.

² Manrique, Jorge. *Coplas a la muerte de su padre y otros poemas*, Sevilla: Alfar, 2014; 2ª edición, Copla III. (مانريكي، خورخي، مقطوعات عن موت والده وقصائد أخرى، المقطوعة الثالثة).

¹ خورخي مانريكي، شاعر إسباني ينتمي لعصر ما قبل النهضة. رغم شهرته، لم يترك آثاراً كثيرة، بل مجموعاً صغيراً تضمن قصيدته الشهيرة في رثاء والده، التي تعد من عيون الأدب الإسباني عبر العصور.

por donde se va, entre naranjos de oro, Guadalquivir a la mar!	بين أشجار البرتقال الذهبية
--	-------------------------------

يتهادى إلى ذهن المتلقي عند التقاطه لهذه الأبيات موقف الجنازة ومراسم العزاء، ويرمز الوادي الكبير للإنسان حال تشييعه محمولاً في تابوته إلى مثواه الأرضي الأخير، وقد حفت بالنهر الثمرات والأشجار كأنما هو محفل توديع مهيب، ثم رمز بالبحر (المحيط الأطلسي) للنهاية أو القبر، حيث يتبدد الوادي الكبير كما الإنسان الذي يثوي ثم يتحلل في حفرته الصغيرة. إنها تظاهرة نحو النهاية والموت، يمضي النهر لمصبه الأخير مضي الإنسان لقدره المحتوم، ومادام المصير هو القبر أو البحر فلا يهم إن وصل إليه حياً أو ميتاً: ومن قصيدة له سبقت الإشارة إليها في الأعلى يقول أيضاً³:

أيها الوادي الكبير!
رأيتك قد ولدت في كاثورلا
واليوم تموت في سانلوكار
فقاعة كبيرة لماء صافٍ تحت صنوبر أخضر،
لقد كنت أنت، كم كان جميلاً حسك!
مثلي، قريباً من البحر، نهرٌ من طين مالح
أتحلم بنبعك؟

لقد اتخذ الشاعر من الجغرافيا وسيلة للتعبير عن الحتمية الوجودية؛ فجعل الحياة في كاثورلا القريبة من جيان والموت في سانلوكار المتاخمة للمحيط

allí los otros medianos y más chicos; y llegados, son iguales los que viven por sus manos y los ricos.	والواصلون، وكلهم سواسية من يعيشون من كد أيديهم والأغنياء
---	--

هنا يرمز للموت بالنهر الذي يتوقف بعد مسيرة جارفة، ولا ريب أن نصه هذا من مرثيته الشهيرة لوالده قد ترك أثراً عميقاً في نفوس الشعراء الإسبان في العصر الحديث في تعاطيهم مع ظاهرة النهر الذي يخترق إسبانيا بكل غطرسة لكنه في نهاية المطاف يتلاشى في المحيط ويموت، كما أن تشبيهه النهر بالحياة وبالإنسان، والانصباب في المحيط بالموت، قد لقي صدًى واسعاً في نصوصهم، وقد رأينا كيف تمثلت فكرة الأنهار الكبيرة/البشر العظماء والأنهار الصغيرة/البشر الضعفاء في نص الشاعرة الإشبيلية ماريّا دي لوس ريبس فوينتس على نحو لافت ومحوري. بدوره يقول أنطونيو ماتشادو مقتفياً أثر مانريكي¹:

Soria de montes azules y de yermos de violeta, !cuantas veces te he soñado en esta florida vega,	سوريا ² ، بجبالها الزرقاء وأراضيها البنفسجية، كم حلمت بك في هذا المرج المزهر من حيث يذهب الوادي الكبير إلى البحر
---	--

³ Machado Ruiz, Antonio. *Nuevas canciones*, p. 33.

¹ Machado Ruiz, Antonio. *Nuevas canciones*, p. 13.

² سوريا هنا Soria، المعروف. مدينة صغيرة تقع في إسبانيا في منطقة قشتالة وليون، وليست البلد العربي

"روح قرطبة وإشبيلية" ربما يطوي أيضًا إشارة للموت بإزاء الحياة؛ فإذا كانت الروح مادة الحياة الأولى فالنهر الذي "يحمل الدم والتهديدات" فاقد لكمال الحياة، وهو إلى لازمة الموت أقرب وبها أولى. وإذا كان النهر "المعتل" إرهابًا للموت وسيبًا إليه، فلا شك أن البحر، والمقصود به هنا المحيط الأطلسي، يمثل الموت والنهاية. والحق أنه من دواعي التأمل اقتران المحيط الأطلسي بالموت، وهو أمر مألوف عند الشاعرة وعند غيرها، ولعل هذا المحيط قد مثل للشاعر الإسباني قلقًا وجوديًا لأن التقاءه بالأنهار يعني انتهاء مسيرها تمامًا فهو إذن كالموت الذي ينهي مسيرة البشر باختلاف أحوالهم، والوادي الكبير قسيم هذا الإنسان ورمزه الأبدي.

ثم إن المحيط الأطلسي في الذاكرة الشعبية الإسبانية كان آية على المغامرة المميتة، ولا شك أنه كذلك عند الأندلسيين؛ فقد عرف عندهم بما يعبر عن أثره فيهم "بحر الظلمات"، وحكاية الفتية المغررين الثمانية الذين خاضوه شهيرة¹، ولعلها وشبهاتها من وطء فكرة البحر/الموت في الوجدان الإيبيري. وهذا البحر رمز للا عودة فمن يخوضه لا ترجى له أوبة منه، والنهر الذي يصب فيه لا يعود نهائيًا بل يضمحل وينقضي، واللافت أن النهر يحكم على نفسه بالنهاية تحدوه الإرادة الحرة التي تلقيه في أحضان الموت: "يلقي بنفسه في البحر نهائيًا من قرطبة"، والإشارة هنا لمسيرة

الأطلسي. إن المكان هنا علامة مزدوجة تشير للحياة والموت؛ فالمسافة الزمنية بين نقطتين على الأرض أولاهما بداية والأخرى نهاية تجسيد لموقف الإنسان بينهما، وما سعي النهر في الأرض إلا كسعي البشر فيها وكلاهما محكوم بخاتمة.

ورغم هذه التجارب الدالة، تظل -في نظري- الشاعرة الإشبيلية ماريا دي لوس ريبس فوينتس خير من تناول فكرة الجمع بين النهر والنهاية، في نصيها اللذين عالجنهما في الشق الأول من هذه الدراسة:

هذا النهر العابر خلال روح قرطبة وإشبيلية
يحمل الدم والتهديدات من الرحيق إلى بتلة قرطبة
وإشبيلية

يلقي بنفسه في البحر نهائيًا من قرطبة معطيًا
لمساره روغان فارس يهرب
ويقرر المضي في ممر باتجاه الجنوب
يقطعه ويدركه قبل البحر،
قبل المجد أو الموت.

تعلو هذه المقطوعة مسحة من الحزن والكآبة، مردها شعور دفين بألم النهاية/الموت خضب اللوحة باللون الأسود القاتم. بدا نهر الوادي الكبير معادلًا موضوعيًا للألم والموت، مخالفًا بذلك تقاليد طويلة استقر فيها الماء في أذهان الشعراء رمزًا للآل والراحة. إنه "النهر العابر" ذو الانطلاقة نحو غاية، ولا غاية في النص إلا التلاشي والموت، واقتتران النهر في عبوره بالأرواح

¹ انظر الإدريسي، الشريف أبو عبد الله محمد، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مجموعة من المحققين، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2002، ج 1، ص 548.

الموت لا الحياة مثل الهروب والجريان المنبئين عن اضطراب حركي وتسارع مردهما تعقب الموت للأحياء، حتى الحياة وسمتها أحياناً بالعبثية واللا جدوى:

وفي كل زوايا الأرض

تدفق الأنهار والبشر، تسيل وتجري،

لتسكب في بحرها -المحكوم عليه بشدة-

الينبوع الأخير حيث الغرق

مع تمزقات الهروب.

إن الإنسان، كالنهر، جريان، هروب،

ندم؛ يمضي في البدء مندفعاً

ثم يستكنّ في حين، لكن يظل قدماً،

في الركض -غير المجدي- للدقيقة بعد الدقيقة.

إنها حياة مفرغة من معانيها، وليست حركتها إلا دليلاً على الموت وإيذاناً به، تماماً كما هي حياة المحكوم بالإعدام لا قيمة لها ولا سعادة فيها. إن النهر وقسيمه الإنسان، موجودات في خدمة العدم، يقاتل عليها الموت حتى وإن كانت عظيمة؛ إذ لا قيمة لعظمتها وهي كغيرها مرتحنة للنهاية المحتومة.

وفي النفس ما يحمل على القول بأن نصي الشاعرة هذين ولدا من رحم الماضي العربي الأقل ومن وحيه، حين كانت إشبيلية حاضرة الحواضر في الأندلس، وبالأخص زمن دولة بني عباد. فالشاعرة ابنة إشبيلية وفي جيلها نما شعور انتماء كبير للأندلس، لعله ألهم عواطف الشاعرة، خاصة النهاية المرة للمعتمد بن عباد بالتحول من طريق البحر إلى حيث النهاية والموت في

الإنسان فهو مندفع باختياره إلى نهايته، وهنا تتأزم الحالة الفكرية للإنسان -المكنى عنه بالنهر- ما بين الجبرية والاختيارية؛ فهو مدفوع للموت ومندفع إليه في الوقت ذاته، وهذه مفارقة وجودية لا تتأتى لغير الإنسان:

وفي نصها الآخر المعنون بـ "النهر" يمكن التقاط بعض المشاهد المهمة:

النهر مثل ذراع عدالة

حكمه يأتي في الأخير: العبور، العبوة.

موقف المحاكمة هذا يلعب فيه نهر الوادي الكبير دوراً حيوياً لارتباطه بإصدار الأحكام، ولأنه قضاء نهائي لا رجعة فيه، لا يستتم إلا في المرحلة الأخيرة من التقاضي، كما هو النهر الذي يتأجل حكمه/نهايته لحين اتصاله بالمحيط، ويكون امتداده وجريانه شبيهاً بجريان أي قضية طويلة يحكم فيها في النهاية بإعدام المتهم. ونهر الوادي الكبير هنا، ما أن يصل للمحيط حتى يحكم بالإعدام على نفسه بنفسه ليكون قد عبر الحياة ومضى منها وأصبح عبوة ومحط تأمل: " حكمه يأتي في الأخير: العبور، العبوة". إنها مساقات حياتية معقدة؛ متساوقة أحياناً ومتنافرة أحياناً أخرى.

وقد أكدت الشاعرة على تماهي الإنسان مع النهر بجامع الانطلاق في مسالك الأرض إلى قدر محتوم، والمحيط/البحر قسيم الموت ومعادله الموضوعي، لذا جرى التعبير عن الموت والنهاية بلفظ "الغرق". والظاهر أن نصي الشاعرة انبنيا ابتداءً على مفهوم النهاية؛ ولذلك نجدها تستعين كثيراً بما يخدم فكرة

الموت، ملخاً لدى الشاعر الأندلسي وهو يستعين بنهر الوادي الكبير في استنطاق مخياله الشعري، ما يعني اعتداده بالحياة أكثر من الموت، وأن الوجه المشرق لها - ممثلاً بنهر الوادي الكبير - قد شغله أكثر من الوجه الحالك الحزين.

أما في سائر نصوص الوادي الكبير التي استعرضناها، المنتمية للأدب الإسباني القديم والحديث؛ فيمكن القول إجمالاً بأنها قد أبانت عن تماهٍ واسع بين النهر والحياة بالدرجة الأولى، جعل لها فيضاً وسيلاً وله ولادة ونموً وانكماشاً، على أن مساحة الحياة جاءت لديهم أرحب من الموت في الغالب من نصوصهم الواردة في الدراسة.

إن ما تمخض عنه البحث يدفعنا إلى القول بأن نهر الوادي الكبير في الثقافة الإسبانية عامة قد شكل معادلاً موضوعياً للحياة والموت في آن واحد، على أن التجربة الإسبانية الحديثة تظل أكثر تعمقاً وشعوراً بنهر الوادي الكبير الذي اتخذ معها بعداً وجودياً عميقاً جعله يقابل الحياة بالموت والوجود بالعدم. ولأنه محكوم بنقطة ابتداء وانتهاء فقد تركب على حركة الإنسان في ولادته ومماته وبينهما ركضه الدؤوب الحافل بالأحداث. وقد اتخذ الأمر بعداً عديمًا تشاؤميًا عند بعض الشعراء الإسبان لشدة اعتدادهم بفكرة النهر الإنسان؛ فالنهر رغم عظمتة وحيويته محكوم بالعدم لأن مصيره النهاية في المحيط، وكذلك العمر وخاتمته التي لا مناص منها: "الموت" ولا شيء غيره.

منفاه بالمغرب، واستعملت الوادي الكبير رمزاً لذلك؛ فهو يتناهى في المحيط كلياً، لكن تظل ذكره متوهجة وملهمة. ومن اللافت أن الشاعرة اتخذت من (الهروب) مكافئاً للجريان ومعادلاً له، في إشارة إلى الإنسان، يحاول الهروب من مصيره ثم يلقاه في نهاية المطاف، تماماً كالنهر الذي يتبدد في المحيط؛ ذلك الهائل الذي يرمز للنهاية والاحتواء القاتم: "إن الإنسان، كالنهر، جريان، هروب...".

والحقيقة أن بعداً وجودياً يطوق النصين، وفيهما مسحة ظاهرة من تأملات شوبنهاور ونييتشة؛ إذ النهاية المحتومة تبعث على التلبك حيال جدوى الحياة وأهمية العيش، ولعل الغابر العربي الذي تلاشى في إشبيلية وغيرها فذهب الناس وبقيت آثارهم؛ قد ترك في نفس الشاعرة - وينسحب على أمثالها - أثراً غائراً يبعث على التفكير في طبيعة الوجود وجدواه:

إن الإنسان، كالنهر، جريان، هروب،

ندم؛ يمضي بدءاً مندفعاً

ثم يستكن في حين، لكن يظل قدماً،

في الركض - غير المجدي - للدقيقة بعد الدقيقة.

خلاصة:

لامس العمل التجربة الشعرية الأندلسية إزاء نهر الوادي الكبير، وكشف عن حضوره مكوناً أساساً وركيزة من ركائز الطبيعة التي شغف بها الأندلسيون، على اعتبار ما مثله من بعد لوجوديتهم، لكنه في العموم بقي في طور المسلك الذي يتوصل به لسائر عناصر المتع والملذات. ولم يكن الوجه الآخر، وأعني

المصادر والمراجع:**أولاً: المصادر**

القران الكريم
ابن الأبار، المقتضب من كتاب تحفة القادم، ت. إبراهيم الأبياري، القاهرة-بيروت: دار الكتاب المصري-دار الكتاب اللبناني، ط3، 1989.
ابن خفاجة، ديوان، تحقيق: عبد الله سنده، بيروت: دار المعرفة، 2006، ص 208.
ابن رشيقي، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الجيل، ط5، 1981.
الإدريسي، الشريف أبو عبد الله محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مجموعة من المحققين، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2002.
ابن ظافر، علي، بدائع البدائ، ضبطه وصححه: مصطفى عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، 2007.
أبو نواس، ديوان أبي نواس برواية الصولي، تحقيق: بهجت الحديثي، أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، 2010.
المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1988.

ثانياً: المراجع:**-المراجع العربية والمترجمة:**

باشلار، غاستون، الماء والأحلام، ترجمة: علي نجيب إبراهيم، بيروت: المنظمة العربية للنشر، 2007.
بنحمادة، سعيد، الماء والانسان في الاندلس - خلال القرنين 7 و 8 هـ / 13 و 14 م - إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 2007.
بنفنيست، إميل، السيميولوجيا واللغة، ترجمة: سيزا قاسم، مجلة فصول، المجلد 1، العدد3، 1981.
بنكراد، سعيد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، سوريا: دار الحوار، ط3، 2012.
- السيميائيات والتأويل، مدخل لسيميائيات ش.س. بورس، بيروت-الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2005.
الجديعي، محمد، المائيات في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، ماجستير، جامعة أم القرى، 2015.
سلطان، هبة، أثر الماء في القصيدة الأندلسية، الجامعة الأردنية، ماجستير، 2009.
الشكعة، مصطفى، الشعر الأندلسي موضوعاته وفنونه، بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 1979.
شولز، روبرت، السيمياء والتأويل، ترجمة: سعيد الغانمي، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1994.

Jiménez Martos, Luis. *Abrazo al Guadalquivir*. Colección Córdoba. Diario Córdoba y Cajasur 1996.

Machado, Manuel y Antonio. *Obras Completas*. Madrid: Plenitud, 1957, 3º ed.

Machado Ruiz, Antonio. *Nuevas canciones. Poesías completas*, España:

Rincon Castellano 1997 – 2011. (edición digital).

Manrique, Jorge. *Coplas a la muerte de su padre y otros poemas*, Sevilla: Alfar, 2014; 2ºed.

Martínez Ortega, Carmen Elena, *La obra poética de María de los Reyes Fuentes*, tesis doctoral, Sevilla, 2011.

Molina, Ricardo. *Aún es Córdoba Bella*. Antología poética. Selección y prólogo: Carlos Clementson, España: Junta de Andalucía, 2017.

Naranjo Mesa, Jorge Alberto. *Poesía del Renacimiento y el Barroco*. Colombia: Universidad de Antioquia, 2005.

Pineda Novo, Daniel. "Antonio Machado, exegeta del Guadalquivir". *Boletín del Instituto de Estudios Giennenses*, N. 66, 1970, pp.41-68.

Solano Márquez, Francisco. *Un río de versos. Rincones de Córdoba con encanto*. Diario Córdoba 2003.

عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، عمّان: دار الشروق، 2008.

-المراجع الأجنبية:

De la Cueva de Garoza, Juan. *La Conquista de la Bética*. Madrid: imprenta Real, 1795.

De Góngora y Argote, Luis. *Poesías escogidas*, Córdoba: Imprenta de Noguér y Manté, 1841.

Eslava Galán, Juan. *Viaje por el Guadalquivir y su historia*, Madrid: La Esfera de los Libros, 2016.

Fiesta de la Poesía Árabe. IX Centenario de Aben Házam, 12 al 18 de mayo. Córdoba, 1963.

Fuentes, María de los Reyes. *Elegías del Uad el-kebir*. Excmo., Sevilla: Ayuntamiento de, 1961.

Glendinning, Nigel: "The philosophy of Henri Bergson in the poetry of Antonio Machado", *Revue de littérature comparée*, 36 (1962), pp. 50-70.

Jerónimo de Salas Barbadillo, Alonso. *Obras de Alonso Jerónimo de Salas Barbadillo*, Madrid: Tip. de la Revista de Archivos, 1907-09.

The symbolism of the "Guadalquivir" in Andalusian and Spanish poetry A comparative study in selected models¹

Dr. Saleh Eazah Al-Zahrani
*Associate Professor at King Saud
University - College of Arts - Department of Arabic Language*

Abstract. this study deals with a clear phenomenon that enjoys remarkable representations in ancient and modern Spanish poetry, which lies in the impersonation of the famous "Guadalquivir" river in the Spanish south, as a symbol with which the poem tries to embody the permanent attraction between man and the existential phenomena around him. The reading aims to analyze this relationship and deconstruct it into major signs that are seized by the duality of death and life. The study selected texts from Spanish poetry in ancient and modern times for the most important poets who considered the Guadalquivir river to be a deep substance, so they relied on it to form the poem objectively and artistically. At the beginning of the study, a flickering reference to the Andalusian experience in this subject shows the preoccupation of the Andalusian poets in superficial matters, while Spanish poets was preoccupied with something deeper than that, bound by the higher existential value of the Guadalquivir River.

Key words: Spanish poetry, symbolism, Guadalquivir.

¹ The author expresses his deepest appreciation and thanks to the Deanship of Scientific Research at King Saud University, represented by the Research Centre at the College of Arts, for funding this research. He also extends his thanks to RSSU at King Saud University for their technical support.